
احمد حسن القضاة
من ماضينا البعيد
مسرحية تاريخية
من ماضينا البعيد
احمد حسن القضاة

من ماضينا البعيد

الطبعة الأولى

٢٠١٤م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٧٠/ ١/ ٢٠١٤)

٨١٢، ٩
القضاة ، احمد حسن
من ماضينا البعيد – مسرحية تاريخية/ احمد حسن القضاة
عمان: دار الجنان للنشر والتوزيع٢٠١٤.
(٨٨) ص
ر.أ: (١٧٠/ ١/ ٢٠١٤).
الواصفات:المسرحيات العربية / / العصر الحديث /

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

ردمك ISBN 978 - 9957 - 551 - 78 - 0

دار الجنان للنشر والتوزيع - عمان – الاردن

هاتف: ٠٠٩٦٢٦٤٦٥٩٨٩١ dar_jenan@yahoo.com

من ماضينا البعيد

مسرحية تاريخية

تأليف

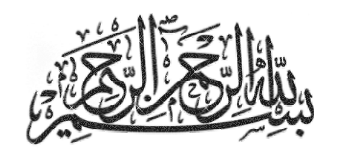
أحمد حسن القضاة

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م




بسم الله الرحمن الرحيم



تتألف هذه المسرحية من أربعة فصول

وكلُّ فصل يتألف من ثلاثة مَشاهد



شخصيَّات المسرحيَّة

١- الملك المظفر قطز- سلطان المسلمين

٢- الملك الظاهر بيبرس- سلطان المسلمين بعد قطز

٣- الملك الأشرف موسى بن المنصور- صاحب حمص وعميل للتتار.

٤- ابن الزكي- قاضي القضاة وعميل للتتار

٥- الأمير جمال الدين آقوش الشمسي

٦- الأمير فخر الدين

٧- الملك المنصور- صاحب حماة

٨- الإمام أبو زكريا محيي الدين النووي

٩- الشيخ ابن النجار

١٠- الأمير بدر الدين الخازندار وزير الحربية والقائد العام للجيش

١١- هولاكو- زعيم التتار

١٢- كتبغا- نائب هولاكو

١٣- بيدرا- نائب آخر لهولاكو

الفَصل الأوَّل

المَشهد الأوَّل

كان الأمير الطموح سيف الدين قطز (الملك المظفر قطز فيما بعد) زعيم المماليك البحرية والرجل القوي في مصر في عهد الملك المنصور نور الدين علي بن الملك المعز عز الدين أيبك الذي اغتيل عام ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م على يد زوجته شجرة الدر المرأة القوية التي حكمت مصر في ذلك الحين.

بعد اغتيال الملك عز الدين أيبك تولى بعده المُلكَ ابنُه نور الدين علي.

* * *

أخذت الأميرَ سيف الدين قطز همومٌ لا حصر لها؛ فهؤلاء المغول يزحفون على بلاد الشام وباتجاه مصر، بعد أن قضوا على الخلافة العباسية في بغداد، وهذا الملك نور الدين غِرٌّ ضعيف، وليّ الملك وهو في الخامسة عشرة من عمره وقيل الواحدة والعشرين، إلا أنه كان طائش العقل يلعب بالحَمام مع أولاد الغلمان. فكانت أمه تدير أحوال المملكة بالنيابة عنه. ولذا، سعى الأمير سيف الدين قطز لأن يحظى بثقة الملك الصغير وأمه. وتدرج في المناصب حتى أصبح نائباً للملك، وأضحى ذا سطوة وهَيْبة في الحكم.

* * *

يُرفع الستار عن الأمير سيف الدين قطز جالساً في قصره وحيداً، متفكراً في ما آلت إليه الأمور في مصر بعد اغتيال الملك المعز عز الدين أيبك وتولي ابنه نور الدين علي المُلك بعده.

الأمير سيف الدين قطز (كالمخاطب لنفسه): إن وجود الملك الضعيف، هذا الغلام الطائش يقف حائلاً بيني وبين تحقيق طموحاتي في الوصول إلى المُلك ووقْف المد المغولي، وكسر شوكة التتار. فكيف السبيل إلى تحقيق هذه الأهداف؟

في هذه الأثناء يستأذن الحاجب بالدخول بعد أن قرع البـاب. يسمع الأمير قرع الباب فيفيق مذهولاً من تفكيره وسرحان خياله، ويصرخ: مَن بالباب؟

الحاجب: يا مولاي الأمير! إن الأمـير ركـن الـدين بيـبرس يستأذن للدخول.

الأمير سيف الدين: فليدخل.

يـذهب الحاجـب ويطلـب مـن الأمـير ركـن الـدين بيـبرس الدخول.

الأمـير ركـن الـدين بيـبرس: الـسلام علـيكم ورحمـة الله وبركاته أيها الأمير!

الأمـير سـيف الـدين قطـز: وعليـك الـسلام ورحمـة الله وبركاته. ماذا هنالك من جديد أيها الأمير!؟

الأمير ركـن الديـن بيـبرس: أطلعني قادة سرايا الاسـتطلاع أن الأيوبيين قد قدموا من الشام لقتالنا وعلى رأسهم الملك المغيث ملك الكرك.

الأمير سيف الدين قطز (ينتصب واقفاً كمَن لدغته أفعى):
ماذا تقول يا رجـل؟ ألاَ قاتـلَ الله هـؤلاء

الأيوبيين، فهم بَدلاً من أن يتعاونوا معنا على قتال المغول والصليبيين نراهم يطمعون لانتزاع بلادنا مِنَّا والاستيلاء عليها. وأين هم الآن؟ وماذا أعددتم من عُدة وجيوش؟ وهل استنفرتم جُموع الشَعب؟

الأمير ركن الدين بيبرس: اطمئن أيها الأمير! فما وصلتُ إلى بابكم هذا إلاَّ وقد تم الإعداد لمقاتلة الأيوبيين... بل إن طلائع جيوشنا قد انطلقت صوْب الصالحية في الجزء الشرقي من البلاد.

الأمير سيف الدين قطز: أيها الحاجب! أُدْعُ لي أركان الجيش والوزراء، وهَيِّءْ لي عُدة الجهاد وفَرسَه.

الحاجب: سَمْعاً وطاعة يا مولاي!

***

بعد ساعة، يجتمع أركان الجيش والقادة الوزراء، ويبدأون

برسم خطة عسكرية قتالية دفاعية لمواجهة جيـوش الأيـوبيين الـتي غزتهم في عقر دارهم.

وينشب قتال عنيف بين الطرفين، ويتم النصر على الأيـوبيين في معركة ضارية في منطقة الصالحية. ويأمر الأمير سيف الدين قطز (باعتباره القائد العام لجيوش المماليك) بـأن تُـضرب أعنـاق قـادة الجيش المهزوم من الأيوبيين مما زاد ذلك في سطوته، وعَزَّز هيبته في مصر.

(ستار)

المشهد الثاني

بعد فترة من الانتصار الساحق على الأيوبيين أُتيحت الفرصة للأمير سيف الدين قطز للانقلاب على مليكه (الملك المنصور نـور الدين علي بن الملك عز الدين أيبك) فخلعه وتسلم عـرش مـصر مكانه، وأعلن نفسه ملكاً تحت اسم الملك المظفر قطز.

* * *

يُرفع الستار عن جموع غفيرة من الـشَعب والقـادة والـوزراء يجتمعون بفناء قصر الملك الجديد المظفر قطز لتقديم الولاء والطاعة والتأييد له.

يَظهر الملك قطز للناس من شـرفة قـصره، ويـشكرهم علـى ولائهم وبيعتهم له، ثم يأمرهم بالانصراف إلى أعمالهم وشؤونهم. ويعـود الملـك إلى مجلـسه في قـصره ومعـه نوابـه وقادتـه ووزراؤه ليتداولوا الأمر في احتمالات غزو المغول فقد كان قطـز يتوقـع أن هولاكو زعيم المغول لن يدَع مصر سالمة من طغيانه، ولن يدَع قطز يستقر في ملكه..

في هذه الأثناء يستأذن الحاجب ويقول:

الحاجب: مولاي! بالباب رُسـل مـن طـرف هولاكـو ملـك المغول.

الملك المظفر قطز (غاضباً): ماذا تقول أيها الحاجب؟

الحاجب: ها هُنا جند يدَّعون أنهم رُسل من قائدهم هؤلاكو ومعهم رسالة مكتوبة منه لمولاي الملك المظفر قطز.

الملك قطز: انتظـر قلـيلاً أيهـا الحاجـب! وأنـتم يـا قـادتي ووزرائي ماذا تَروْنَ من الرأي؟

الوزراء والقادة: فليدخل عريف الرسل يا مولاي لنطَّلع على رسالة هولاكو.

الملك قطز (للحاجب): دَعْ عريفهم يدخل بالرسالة.

يدخل عريف الرسل ومعه رسالة هولاكو فيقدمها للملك بعد أن انحنى له بتحية الأعاجم للملوك.

الملك قطز يعطي الرسالة لأحد قادته ويطلب إليه أن يقرأها بصوت مسموع.

القائد يقرأ: إلى الملك قطز... أدعوكم ومن معكم إلى الخضوع والاستسلام، وإلاَّ فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأي أرض تؤيكم وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص؛ فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق. وقلوبنا كالجبال، وعَددنا كالرمال. فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر.

الملك قطز (والشرر يقدح من عينيه): يا للجبان النذل هولاكو!

عريف رُسل هولاكو لا يفهم ما قاله الملك قطز، غير أنه رأى الملك غضبان كالجَمل الهائج.

خشيَ الملك أن يصاب جيشه وشعبه في مصر بانهيار معنوي بسبب الانتصارات الكاسحة التي كان المغول يحرزونها في بلاد الشام، وبسبب رسالة التهديد هذه، ففكر في رفع معنويات جيشه وشعبه بقتْل رسل هولاكو، وإنْ كان هذا يتنافى والأعراف والقوانين الدولية التي تقْضي بمنع قتل الرسل.. لكنْ.! متى كان العدو يحترم الأعراف والقوانين الدولية وقد قَتل بعضُ ملوك الكفر رُسُلَ النبي ﷺ عندما بعثهم النبي عليه السلام بكتبه لهدايتهم وشعوبَهم إلى دين الحق؟!

الملك قطز: أيها الحاجب! أُدْعُ لي سَيافاً ماهراً.

الحاجب: سمعاً وطاعة يا مولاي!

وبعد قليل يأتي الحاجب بسَّياف ضخم الجثة حاملاً سيفه في غمده.

الملك قطز للسياف: أيها السياف! اضرب بسيفك أعناق
أربعة من هؤلاء الرسل على مرأى من
جماهير الناس، ولْيَبْقَ ذلك الغلام منهم

في جملة مماليكي. وأنت يا قائد الجيش
أعلن النفير العام.. هيَّا".!

يخرج الحاجب والسياف ممسكاً بيد عريف رسل هولاكو كما يخرج بعض المعنيين لتجميع الناس في الساحة العامة لمشاهدة إعدام رسل هولاكو، ولإعلان النفير العام.

يتم إعدام الأربعة وسط حماس الجماهير وغضبهم على المغول.

* * *

كان القصد من إعدام رسل هولاكو- كما أسلفنا- إحداث صدمة معنوية في الجيش والشعب، وذلك بإظهار ضرب من ضروب القوة والبأس والجرأة في وجه الطاغية المغولي؛ إذ كانت سرت في أنحاء مصر شائعات بثت الرعب والهلع في القلوب من احتمال اجتياح مغولي للبلاد. وكان قد سبق رسالة هولاكو ما ذاع صيته وانتشر خبره من احتلال هولاكو لبغداد عاصمة الخلافة العباسية وأهمّ المدن الشامية وإحراقها وتدميرها والتنكيل بأهلها وذبحهم، مما أوقع الرعب في قلوب أهالي البلاد التي لم تقع بعدُ في

قبضة المغول وتحْت سيطرتهم، ومما جعل – أيضاً- أمراء المماليـك في مصر والأيـوبيين في الـشام وعـسكرهم- بـل ملـوكهم أيـضاً- يخشون لقاء هولاكو وجيشه، بل يدعو بعضهم إلى ممالأته ومُداراته وتجنب الصدام معه.

(ستار)

المشهد الثالث

ما أن أعلن الملك المظفر قطز النفير العام في سائر أنحاء مملكته حتى اجتمع إليه أمراؤها وقادتها وأولو الرأي فيهـا، فعقـد مجلـساً للتشاور معهم.

الملـك قطـز: أيها الأمراء والقادة! لقد عزمتُ بعـد الاتكـال على الله على التوجه لقتال المغول.

بعض الحاضرين من الأمـراء والقـادة: نوافق مولانا الملـك على ما عزَم عليه.

البعض الآخر (بتلكؤ وتردد وخوف): ولكنْ.. وكما تعلم يا مولانا، لا طاقة لنا بقتـال هـؤلاء المغـول، ولا قدرة لجيوشنا بمقابلة جيوشهم، وأنت تعلم مَن هم المغول وما أحدثوه من دمار وفساد في كل أرض حلّوا فيها.

الملك قطز (بغضب): يا أمراء المـسلمين! منـذ زمـن وأنـتم تـأكلون أمـوال بيـت المـال وأنـتم للغـزاة كـارهون.. وأنـا متوجِّـه إلـيهم، فمـن اختـار الجهاد فليصحبني ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيتـه، فـإن الله مطلـع عليـه، وخطيئـة حـريم المسلمين في رقاب المتأخرين. واعلموا أنكم إن تأخرتم عن قتال التتار ملكـوا الـديار المـصرية وفعلوا بنا كما فعلوا في بغداد.

الأمراء المترددون لا يجيبون، وأما الأمراء الموافقون فقد أمرهم الملك بدعوة جميع الأجناد للخروج إلى القتال، ومَن وُجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع. فاجتمع إليه جميع عسكر مصر ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم.

الملك قطز: أيها الحاجب! أُدْعُ لي وزير الخزانة.

الحاجب: سمعاً وطاعة يا مولاي!

وبعد قليل يحضر وزير الخزانة، فيسلّم على الملك ويأمره الملك بالجلوس.

الملك (للوزير): أيها الوزير! لقد قررنا أن نجْمع الأموال لتغطية الحرب، فاكتب ما يلي:

إلى جميع المصريين في بلادنا العزيزة: إنه بالنظر إلى حالة الحرب والظروف العصيبة التي تمر بها البلاد فقد قررت الآتي:

١- على كل رأس من أهل مصر من كبير وصغير أن يدفع ديناراً واحداً.

٢- تؤخذ من أجرة الأملاك أجرة شهر واحد.

٣- تؤخذ الزكاة معجَّلاً من الأغنياء والتجار.

٤- يؤخذ ثلث المال من غير المؤهلين للجند من أهل البلاد.

٥- تؤخذ أجرة شهر واحد على الغيطان والسواقي.

يخرج وزير الخزانة بهذه القرارات الملكية ويقوم بإبلاغها- مع أعوانه والمعنيين- وتنفيذها فوراً.

*** * ***

وبعد أن أتم الملك المظفر إعداد الحملة للقتال استدعى قـادة الجيش والأمراء إلى دار السلطنة، وأمر بأن تُقرع طبول الحرب وأن يتحرك الجيش ليلاً.. ولكنْ.! قبْل أن يبـدأ الجـيش بـالتحرك قـال الملك لأمرائه: أنا ألقى التتار بنفسي (ويعـني أنـه سـيذهب معهـم للحرب).

(ستار)

الفصل الثاني

المشهد الأول

انطلق الملك قطز بالجيش الإسلامي من قلعة الجبل حيث كانت دار السلطنة بمصر القديمة... انطلقوا باتجاه الساحل الشامي ويصحبهم الملك المنصور صاحب حماة، وفي مقدمة الجيش الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري (الملك الظاهر بيبرس فيما بعد)..

الملك قطز (للأمير الظاهر بيبرس): أيها الأمير! لتكن في
طليعة الجيش للتعرف على أخبار التتار.
وأنتم أيها القادة مُروا جنودكم ليقتصدوا
بالزاد في أثناء المسير كي لا يفقد الجيش

المؤونة في أرض تفتقر الى المؤن. وأنت يا صاحب حماة! لا تحتفل في مدّ سماط لأصحابك، بل كل واحد منهم يفطر على قطعة لحم في صولقه[1].

الملك المنصور صاحب حماة: سآمر أصحابي وجنودي بذلك وإنْ كان ذلك سيشق عليهم بادىء الأمر. ولكنهم سيعتادونه إن شاء الله.

* * *

وصل الجيش الإسلامي إلى غزة، وكانت حاميتها من المغول بقيادة بيدرا الذي ما أن علم بتقدم الملك قطز بجيشه نحوه حتى بعثَ يطلب تعزيز مواقعه كي يتمكن من الصمود في وجه القوات الإسلامية الزاحفة، إلاَّ أن الملك قطز لم يمهله كثيراً، فاجتاحت قواته مواقعه بسرعة فائقة وتقهقرَ هو ومَن بقي معه شمالاً ثم شرقاً لينضم إلى القوات المغولية المحتشدة في البقاع.

مكثَ الملك قطز في غزة يوماً واحداً، ثُم تابع تقدمه شمالاً باتجاه يافا فحيفا فعكا. وكان الأمير ركن الدين بيبرس في طليعة

(1) مخلاة من الجلد يضعها المقاتل في حزامه.

الجيش يطارد فلول المغول المنهزمة أمامه إمَّا بعد مناوشات بسيطة أو بلا قتال.

وما أن وصل الملك قطز إلى حدود عكا التي كانت ما تزال بأيدي الصليبيين حتى كتب إلى قائد حاميتها.

الملك قطز (لأحد ضباطه): أيها الضابط! خذ هذه الرسالة إلى قائد حامية عكا، واذهب وبرفقتك نفر من الجند كرسول منّي إليه.

الضابط: سمعاً وطاعة يا مولاي!

يصل الضابط ومجموعته إلى مقر قائد الحامية الصليبي ويدخل عليه ويناوله الرسالة التي كُلف بإرسالها من الملك قطز.

يقرأ قائد حامية عكا الرسالة على أركانه وقادته والتي تنص على عدم التعرض للجيش الإسلامي، فيذعن قائد الحامية لذلك، بل ويخرج ومعه الصليبيون ليطلبوا الإذن من قطز بالسماح لحاميتهم بمساعدة الجيش الإسلامي.

يلتقي قائد الحامية بالملك قطز، فيبدي قائد الحامية فكرة المساعدة على حرب التتار فيشكره الملك على ذلك.

الملك قطز (لقائد الحامية): شكراً لكم أيها القائد! ولكنَّا

نستحلفكم أن تكونـوا لا لنـا ولا علينـا..
فهذا ما نطلبه منكم ولكن.. أقسم أنه متى
بدرت منكم بـادرة أذى لجـيش المـسلمين
لأرجعنَّ وأقاتلكم قبل أن ألقى التتار..

قائد الحامية (للملك قطز): لن تَرى أيهـا الملـك إلاَّ مـا يَسرُّك منَّا.

ثم أخلع الملك عليهم، ومنحهم هدايا. فعادوا من حيث أتوا بعد أن عاهدوا المسلمين على الحياد وعدم التدخل.

(ستار)

المشهد الثاني

(في مجلس ضمَّ كتبغا وبيدرا نائبيْ هولاكو زعيم التتار)

النائب كتبغا (موجِّهاً كلامه للحضور): وردتنا الأوامر

من القائد العام لجيوشنا المغولية هولاكو

بالاستعداد لقتال جيوش الملك قطز والتي

وصلت الآن إلى عكا.. كما أمرَ بتعييني

قائداً عاماً للجيش الذي سيتولى قتال

المسلمين.

النائب بيدرا: أرى أن نستدعي إلينا بعض حلفائنا من أهل الشام للإفادة من آرائهم في هذا القتال.

كتبغا: هذا رأي صائب يا سيد بيدرا! يا ضابط الحرس! أرسلْ في طلب الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص وكذلك قاضي القضاة محيي الدين محمد بن يحيى المعروف بابن الزكي لنستشيرهما في هذا لأمر.

ضابط الحرس: سمعاً وطاعة يا سيدي.

يخرج ضابط الحرس ويرسل مَن يأتي بالعميليْن.

***

وفي اليوم التالي يُعقد مجلس آخر بحضور كتبغا وبيدرا والعميلين؛ الملك الأشرف صاحب حمص، وابن الزكي قاضي القضاة.

كتبغا (للعميليْن): بماذا تشيران علينا أيها السيّدان؟

العميل صاحب حمص: أرى وجوب الإسراع في ملاقاة جيش مصر.

العميل ابن الزكي: أما أنا فأرى العكس.. أنا أنصح بالتريث حتى يأتي المدد من هولاكو.

وينفضّ مجلسهم بعد أن شكرهما كتبغا، ثم يأخذ برأي صاحب حمص ويبادر بالتحرك بجيشه الكبير لملاقاة الملك قطز.

وكان جيشه مكّوناً ممَّن في الشام من التتار وغيرهم.. وسار بهذا الجيش حتى استقر في عين جالوت[1].

(ستار)

(1) بلدة من أعمال فلسطين تقع بين بيسان ونابلس على نهر يدعى نهر جالوت أو جالود.

المشهد الثالث

عندما وصلت طلائع الجيش الإسلامي بقيادة الأمـير بيـبرس إلى ضواحي عين جالوت وشاهدت طلائع الجيش المغولي منتـشرة في تلك المنطقة أرسل الأمير بيبرس لاستشارة الملـك قطـز في مـاذا يفعل؟

الأمـير بيـبرس (لمجموعـة أركانـه وضـباطه): أرى أن نستشير مولانا الملك قطز ونطلعـه علـى الموقف.. وبما أن الأمر خطـير سـأذهب إلى الملك بنفـسي، فـاكتموا سـر ذهـابي إليه..

القادة: رافقتك السلامة أيها الأمير!

* * *

يعود الأمير بيبرس إلى الخط الخلفي حيث ما زال الملك قطز فيه قبْل أن يتقدم إلى الخط الأمامي، والذي لم يكن بعيداً جداً عن الخط الأمامي.

الأمير بيبرس (في حضرة الملك قطز وأمرائه وقادته):
ما الذي يأمرنا به مولانا الملك المظفر قطز في هذا الموقف بعد أن شاهدنا طلائع الجيش المغولي في منطقة عين جالوت؟

الملك قطز: أرى أن تناوشهم القتال لاختبار قوتهم، وأنا وأمرائي وسائر الجيش سنكون في إثركم لنشارككم القتال حالاً إن شاء الله.

وينصرف الأمير بيبرس من عند الملك عائداً إلى موقعه في الخط الأمامي، ويلقي بتعليمات وأوامر الملك قطز على مسامع أركانه وضباطه؛ فيبدأ جميعهم بالإعداد للمعركة الحاسمة.

* * *

تبدأ المناوشات من طليعة الجيش الإسلامي بقيادة الأمير

بيبرس ضد طلائع الجيش المغولي، بينما طبول الحرب تقرع فتملأ أرجاء الوادي وساحة المعركة حماساً وضجيجاً.

حميَ وطيس المعركة واشتدت حدة القتال بين الجيوش المتصارعة.

تلتحق قوات الخط الخلفي للجيش الإسلامي بقيادة الملك قطز لتكوِّن مع قوات الطليعة جيشاً واحداً، ويقدّمون من التضحيات والبسالة ما ظهرت نتائجها فيما بعد..

الملك قطز (في قلب الجيش يراقب سير المعركة ويشارك فيها.. يقول لأمرائه معه): انظروا إلى ميْسرة جيشنا منهزمة! يا إلهي! ما الذي حَدث لهم؟

يرمي بخوذته أرضاً ويصرخ بأعلى صوته: واإسلاماه! واإسلاماه! واإسلاماه! ثم ينطلق بمن معه في القلب في هجوم ردِّي صاعق دعماً للميْسرة المنهزمة، فعاد جند الميْسرة إلى الهجوم بعد أن كانوا منهزمين، وذلك لَمَّا أن رأوا ملكهم يصرخ ويدعو ربه النصر والمَدد، ويُلقي بنفسه في أتون المعركة.

الملك قطز (مقتحماً المعركة): الله أكبر، الله أكبر..

جنود من حوله: الله أكبر، الله أكبر.

أحد الجند (للملك قطز): يا مولاي! ذاك قائد المغول كتبغا.

الملك قطز: وأين هو؟

الأمير جمال الدين آقوش الشمسي: سأحمل عليه لأقتله.

وينطلق كالسهم باتجاه كتبغا ويقتله شر قتلة، ويقتل معه العميل الملك السعيد حسن بن عبد العزيز وكان مع التتار.

أحد الجنود (مبْصراً الصبي المغولي الذي أبقاه الملك قطز من رسل هولاكو، وقد فوَّق الصبي سهماً نحو الملك قطز): حذرك يا مولاي من سهم الصبي المغولي!

يخطيء السهم الملك ولم يخطيء حِصانه، وصار الملك بغير حصان.

الجندي الذي أبصر الصبي المغولي يفتك بالصبي ويصرخ في وجهه قبْل أن يجْهز عليه: يا ابن الزانية! خذها من يد جندي مسلم.

الأمير فخر الدين (للملك قطز): يا مولاي! هذا فَرَسِي فاركبْه ريثما تحْضر الخبائب[1].

(1) الخبائب: الخيول الرديفة في الحرب.

الملك قطز: بارك الله فيك أيها الأمير!

وتنجلي معركة عين جالوت عن هزيمة التتار وقتْل أكابرهم.. فنزل الملك المظفر قطز عن فَرسه ومَرِغ وجهه على الأرض وقبَّلها وصلى ركعتين شكراً لله تعالى. ثم ركبَ متجهاً إلى الشام فدخل دمشق بموكب عظيم.

(ستار)

الفصل الثالث

المشهد الأول

عملاء التتار ونوابهم في بلاد الشام مذعورون مرجفون بعد أن وصلت أنباء هزيمة أسيادهم التتار إلى أنحاء الشام.

اجتمع نفر من أولئك العملاء في بيت زميل لهم في دمشق ليتدارسوا موقفهم بعد أن آلت الأمور إلى ما آلت إليه.

قال العميل الأول: هل سمعتم بانكسار حلفائنا التتار وهزيمتهم أمام جيوش قطز؟

قال العميل الثاني: ومَن منّا في أنحاء الشام بل في مصر لم يَسمع بانتصارات الملك قطز وبخاصة في

معركة عين جالوت الأخيرة؟

قال العميل الثالث: ويقولون بأن الملك قطز قد تَوجَّـهَ نحـو دمشق حيث يمكن أن يتخـذها عاصـمة لملكه بعد مصر.

قال العميل الرابع: ومـاذا سيكون مـصيرنا بعـد أن آلـت مقاليد الأمور إلى الملك قطز وأتباعه؟

قال العميل الخامس: ليس لنا إلاّ أن نغيّر مواقعنا وهيئاتنـا ولباسنا كي لا يعْرفنا الناس، ريثما تعود الأمور إلى سابق عهدنا بها.. وذلك بعد أن يعيـد التتـار الكَـرَّة وينتـصروا علـى الملك قطز.

قال العميل السادس: وهـل تأمـل أن يعـود التتـار لحـرب المـسلمين بعــد أن ســحقتهم جيــوش المسلمين؟ وكيف السبيل إلى تغيير هيئاتنا ومواقعنا ونحن نعْلـم أن غالبيـة النـاس يعرفوننا ويعرفون بيوتنا وأهْلنا؟

قال العميل السابع: فلنقم بترحيل زوجاتنا وأبنائنـا إلى بلـد

غير هذا البلـد، ولْنبـقَ نحـن بعـد تمويـه شخصياتنا وتغيير مساكننا.

قال العميل الثامن: ليس هذا بالحَل الناجع.

قال العميـل التاسـع: أجل! ليس هذا بالحل الناجع ففكـروا في حل آخر.

قال العميـل العاشـر: إذن، فالفِرار، الفرار! أنتم وأزواجكـم وأبناؤكم وما ملكت أيمانكم. الفـرار إلى حيـث فـرَّت أشـلاء جيـوش التتـار.. وسارعوا قبْل أن يدرككم قطز وجيشه.

ينصرف العملاء من بيـت زميلـهم وفي أذهـانهم الاسـتعداد للرحيل من دمشق تحْت جنح الظلام- كالخفافيش- بعد أن عاشوا عيوناً وجواسيس فترة من الزمان وأذاقوا المسلمين ألواناً من الظلم والعذاب والتسلط والإرهاب.

* * *

فرقة مـن جيـوش المـسلمين الـتي اشـتركت في معركـة عـين جالوت تستعد لمواكبة موكب قائـدها الملـك المظفـر قطـز لـدخول دمشق بعد النصر المؤزر الذي أحرزته تلك الجيوش على جحافـل

التتار الغازية.

أما سائر الفرق من الجيش الإسلامي فقد عادت إلى مصر.

** * **

الموكب الملكي العظيم يخترق شوارع دمشق بين هتاف الجماهير الغفيرة التي احتشدت لتحية واستقبال أبطالها وفي مقدمتهم قائدهم الملك المظفر قطز.. أولئك الذين أنقذوا البلاد من شرور التتار وفسادهم، وأراحوا العباد من ظلم الغازين الدخلاء.

رجلان من عامة المسلمين بين تلك الجموع يتحاوران:

الأول: ما شاء الله! ما أجمل مواكب النصر وما أبهجها! انظر كيف يحيط الجند بقائدهم وملكهم قطز إحاطة السوار بالمعصم!

الثاني: ولِمَ لا؟ فقد أبلى هذا الملك وجنوده في قتال العدو بلاء حسناً كما حدَّث بذلك الرواة والمشاركون في المعركة.

الأول: وقالوا أيضاً بأن الملك ظل صامداً صابراً في ساحة الوغى يقاتل ويشد أزر جنده فكأنه واحد منهم وليس ملكهم!

الثاني: يا له من ملك عظيم! هكذا يكون الراعي الصالح.!

* * *

مكث الملك قطز وجنده أياماً في دمشق، ثم غادرها عائداً إلى مصر، فدخلها – أيضاً- في موكب عظيم، حيث رحب به وبجيشه جماهير غفيرة من أبناء مصر وأقاموا الاحتفالات والزينات.

ولكن فرحة المسلمين لم تطل، إذ اغتيل الملك قطز في العام نفسه الذي أحرز فيه الانتصارات الكاسحة على المغول وكان اغتياله على يد أقرب قادته إليه.. الأمير ركن الدين بيبرس الذي أعلن نفسه ملكاً على مصر والشام باسم الملك الظاهر بيبرس واتخذ مقر إقامته في دمشق.

(ستار)

المشهد الثاني

بعد اغتيال الملك المظفر قطز طمعت أشلاء التتار التي فرت إلى حدود الشام القصوى في استعادة هيبتها. وظن قادتها أن جيوش المسلمين بعد اغتيال ملكها سيصيبها انهيار في المعنويات، فأخذوا يعيدون تنظيم صفوفهم، وتحالفوا مع بعض الصليبيين لإعادة الكَّرة على المسلمين من جديد.

ولَّما علم الملك الظاهر بيبرس بحشود التتار والصليبيين تصدى لهم وهزمهم. فانحسرت الإمبراطورية المغولية عن بلدان المشرق العربي، ولم يعد المغول إلى بلاد الشام فاتحين إلا بعد عشرات

السنين في عهد الطاغية تيمورلنك، وفي عهد انقسامات حكام المسلمين.

* * *

يُرفع الستار فيبدو لنا الملك الظاهر بيبرس وقد عاد لتوّه من الجهاد بعد أن أجلى عن بلاد الشام شراذم التتار وأعوانهم من الصليبيين والعملاء.

جلس في ديوانه يحف به وزراؤه وقواده..

الملك الظاهر بيبرس (مخاطباً الوزراء والقادة): ها قد شاءت القدرة الإلهية بأن يحالفنا النصر على ما تبقى من أعدائنا الذين عانت منهم الأمة ما عانت من الظلم والفوضى والفساد، فالحمد لله الذي رزقنا هذا النصر المؤزر، والفضل لله أولاً وأخيراً.. وشكراً لكم أيها الأمراء والوزراء والقادة على ما بذلتموه في الحرب وللحرب.

الأمير بدر الدين (وزير الحربية والقائد العام للجيش):

إنْ أَذِنَ لي مولاي الملك بالكلام..

الملك بيبرس: تكلم أيها الأمير القائد!

الأمير بدر الدين: إذا كان هنالك من فضل بهذا النصر الذي أحرزته جيوشنا المظفرة فإن ذلك راجع أولاً- وكما تفضلتم يا مولاي- إلى توفيق الله تعالى ثُم إلى قيادتكم الحكيمة، وإلى استبسالكم في المعارك.

أحد القادة: صَدقَ- واللهِ- الأميرُ يا مولانا الملك..! فلقد كنت القائد الأعلى للجيوش الإسلامية الباسلة، وكنتَ في طليعة الجند المقاتلين.. وقد رأينا ذلك بأم أعيننا.

أحد الوزراء: ليحفظ الله مولانا الملك، وليجْزه عن المسلمين خير الجزاء.!

الوزراء والقادة (بصوت واحد): آمين.. اللهم أمين.!

الملك بيبرس: بارك الله فيكم جميعاً، وشكراً لكم على حُسن ولائكم لنا، ونحمد الله تعالى الذي أنقذ هذه الأمة من شرور الأعداء..

لينفضَّ مجلسكم الآن.. وأطلب إليكم الاحتفاء بهذه المناسبة الكريمة، ولْتُرفع الرايات وأعلام النصر والزينة في الطُرقات وعلى أبواب الدكاكين في الأسواق.

ينصرف جميع مَن في المجلس، ويذهب المعنيون لإبلاغ الناس أوامر الملك لإقامة الاحتفالات ابتهاجاً بالنصر.

* * *

ومضت أيام كان الشَعب فيها فَرِحاً بهذا النصر المبارك الذي قضى على آخر نفوذ للمغول في بلاد المسلمين.. وإنْ كانت بعض النفوس ما زالت مكتئبة تترحم على روح الملك المظفر قطز، وتأسف لِما بَدر من سلطانها الجديد (بيبرس) من اغتيال ذلك الملك الذي كان أول من قادهم إلى النصر، وأذاقهم حلاوته.. ولكنها مشيئة الله تعالى وإرادته. وعسى أن يكون السلطان الجديد خير خلف لخير سلف... وما داموا كلهم (أي السلاطين المسلمون) يعملون في طاعة الله وفي خدمة الشعب ولرفع راية الدين.. فتجب – إذن– طاعتهم، وأما حسابهم فعلى الله تعالى.

ولذا، انصرف أبناء الأمة إلى العُمران والبناء والتجارة والزراعة بعد أن أظلهم ظل الأمن والاستقرار.

المشهد الثالث

يُرفع الستار، فيبدو الملك بيبرس جالساً، مطرقاً، مهموماً بادياً عليه الحزن والغمّ.. ثم ما يلبث الملك أن يصرخ:

الملك بيبرس: أيها الحاجب!

الحاجب: أمْر مولاي مطاع.

الملك بيبرس: أُدْعُ لي كاتب الديوان!

الحاجب: سمعاً وطاعة يا مولاي!

يخرج الحاجب ليستدعي كاتب الديوان.. بعد قليل يحْضر الحاجب برفقة كاتب الديوان، ويدخل الحاجب وحْده على الملك.

الحاجب: ها قد حضر كاتب الديوان يا مولاي!

الملك بيبرس: فليدخل إذن.

الحاجب: يا كاتب الديوان تفضل بالدخول!

يدخل الكاتب.

الكاتب: السلام على مولاي الملك ورحمة الله وبركاته.

الملك بيبرس: وعليك السلام يا كاتب الديوان.! اجلس واكتب ما أُمليه عليك.. لقد قررنا بأن كل مالك لبستان أو أرض يعجز عن إثبات ملكيته لبستانه أو أرضه بأوراق ثبوتية أن يُعتبر فاقداً لملكه وستكون هذه البساتين والأراضي ملكاً للدولة.

الكاتب: ولكن هذه الأملاك يا مولاي كانت ملكاً لذويها قبْل وصول الأعداء إلى هذه البلاد.. بل إن كثيراً من الفلاحين توارثوها أباً عن جَدّ. وإذا كانت بحوزتهم أوراق مِلْكيتها، فقد وصلها الإتلاف أو الفقدان من قبل المحتل مثلما وصل غيرها من الأرواح والممتَلكات في هذه البلاد..

الملك بيبرس (بغضب): إذا أمْليتُ عليك أمْراً فما عليك إلاَّ تنفيذه من غير نقاش أو تبرير..
أُخرج الآن وأعلن للناس قراري هذا..

الكاتب (مرعوباً): سمعاً وطاعة يا مولاي!

يخرج الكاتب ليذيع الأمر السلطاني على الشعب بالوسائل المتعارف عليها كاستدعاء الناس إلى صحن المسجد الكبير في المدينة.

(جلبهة وأصوات وصخب وتذمر بين الناس لدى سماعهم القرار السلطاني).

أحد المواطنين لزميله: يرحم الله الملك قطز وعهده الزاهر.

زميله: هذا قرار ظالم.

مواطن ثالث (يقف إلى جانبهما): صَهْ! كي لا يُلقي القبضَ عليكما أعوانُ السلطان وعيونه.

* * *

يلجأ بعض المواطنين المتضررين من هذا القرار السلطاني الجائر إلى الأمراء والوزراء، وبعضهم إلى العلماء للتوسط لدى السلطان ليلغي هذا القرار، ولكنْ دون جدوى.

يتجه مواطنون آخرون إلى الإمام أبي زكريا النووي – عالم الأمة الإسلامية في الشام آنذاك- فيطمئنهم الإمام بأنه سيكتب إلى الملك بذلك وسيراجعه شخصياً إنْ لم يستجب لكتابه.

يكتب الإمام النووي رسالة فتوى وافية يدافع فيها عن أملاك المواطنين ويقول: وقد لحقَ المسلمين بسبب هذه الحوطة على

أملاكهم أنواع من الضرر لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثبات لا يلزمهم؛ فهذه الحوطة لا تحلّ عند بعض من علماء المسلمين بل من في يده شيء فهو ملكه لا يحلّ الاعتراض عليه ولا يكلف إثباته. وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع الشريف ويوصي نوابه به، فهو أولى مَن عمل به والمسؤول عن إطلاق الناس من هذه الحوطة، والإفراج عنهم جميعهم، فأَطلقهمْ أطلقك الله.

تصل الرسالةُ الملكَ فتأخذّه العزة بالإثم، ويستاء كثيراً من كلام الإمام، ويخشى ثورة الناس أو تمردهم عليه لِما للإمام النووي

من كلمة مسموعة نافذة، وتأثير قوي في نفوس العامة، فيقرر تجريد الإمام من مناصبه.

الملك بيبرس (بغضب شديد): أيها الحاجب!

الحاجب: لبيك يا مولاي!

الملك بيبرس: أُدعُ لي نائبي على ولاية الشام، ونائبي على القضاء والفتيا، ونائبي على الخزينة.

الحاجب: سمعاً وطاعة يا مولاي!

بعد أن حضر النواب جميعهم قال لهم السلطان:

الملك بيبرس: أيها النواب! إني قررت قطْع ماهيات الشيخ أبي زكريا النووي وعزله عن جميع مناصبه.

نائب ولاية الشام (بدهشة): ولِمَ يا مولاي؟ إن الإمام أبا زكريا من خيرة العلماء.

نائب القضاء ونائب الخزينة (بصوت واحد): أجَل يا مولانا.. إنه عالم تقي..

الملك بيبرس (غاضباً): إنّي لمْ أطلب منكم تزكية الشيخ، بل تنفيذ أمري بعزله.

النواب (خائفين): أمركم يا مولانا مطاع.

ثم يستدعي الملكُ الشيخَ ابن النجار ليستطلع رأيه في مسألة الحوطة على الأراضي.

(ستار)

الفصل الرابع

المشهد الأول

في قصر الملك... يدخل أعضاء مجلس الديوان والقيادة العليا، كما يدخل الشيخ ابن النجار، وهو شيخ وعالم سوء من الذين يتخذون الدِين تجارة بل مطية للوصول إلى مآربهم الدنيوية والذين يصطادون في الماء العكر، ولا يتورعون عن إصدار الفتاوى والمسائل المغلوطة في سبيل نيل شهرة دنيوية كاذبة، أو شهوة عابرة، أو منصب وظيفي زائل، وذلك على حساب العلماء الأتقياء والرجال الشرفاء كأمثال الشيخ النووي.

الملك بيبرس: ما تقول يا ابن النجار في أمر هذه البساتين والأراضي بعد أن خلصناها من أيدي

الأعداء؟ ألا يحق لنا أن نضمها إلى خزانة الدولة ما دام ليس هناك من قيود وثبوتات تثبْت ملكيتها لأحد من أبناء الرعية؟

ابن النجار (متسرعاً في فتواه من غير تفكير): بلى يا مولاي! ومَن يفتي بغير ذلك فقد ظلم نفسه وظلم معه مولانا الملك.

الملك بيبرس (منشرحاً صدره، موجّهاً كلامه إلى الحضور): أسمعتم ما قاله شيخنا ابن النجار يا أمرائي ووزرائي؟! وهل وصل مسامعكم ما أفتى به الشيخ أبو زكريا النووي من عدم جواز تملكها للدولة بحجة أنها تعود إلى عامة الناس؟ وأخشى أن تؤدي فتواه إلى تحريض العامة علينا وإحداث فتنة لا يعْلم منتهاها إلاَّ الله وحده..

أحد الوزراء المنافقين: لا عليك يا مولانا من الشيخ أبي زكريا وفتواه، فلَسْوفَ نتولى إسكات صوته وأصوات الخارجين على أوامرك السلطانية بالقوة إن اقتضى الأمر وأذنتَ بذلك..

وهُنا تسنح الفرصة للشيخ ابن النجار ليوغر صدر الملك على الإمام النووي كي يتسلم مناصبه بعد عزله عنها فيقول:

ابن النجار (موجهاً كلامه للملك): ما كان أجدر بذلك الشيخ (ويعني الإمام النووي) ألاَّ يكون ناكراً للجميل، جاحداً للنعمة فلا يتطاول على أوامر مولانا السلطان ولا يخرج على النظام العام وهو الذي كان يتربع على سدَّة مناصب عظيمة في الدولة لم يصل إليها عالم في هذه الأيام.

الملك بيبرس: يا ابن النجار! قد قلدناك جميع مناصبه.

ابن النجار (يكاد يطير فرحاً): لي الشرف العظيم أن أنفِّذ رغبة مولاي السلطان، أدام الله ملكك.

يخرج الجميع من مجلس الملك.

(ستار)

المشهد الثاني

بَعد تلك الأحداث، لم ييأس الإمام أبـو زكريـا النـووي مـن متابعة النصح للملك بيبرس، ولم ينطو علـى نفـسه في بيتـه- كمـا يفعل كثيرون من العلماء خوفاً من بطش السلطان- بل أصر على مجابهة الموقف بصبر وشجاعة وإيمان..

ولِمَ لا؟ وهو مدعو وأمثاله من العلماء- في كل زمان ومكان- إلى إسداء النُصح للحاكم، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى تصحيح الأخطاء وتقويم الاعوجاج؟

فبدأ الإمام بالمعركة هذه المرة بتوجيه رسالة خطية إلى الـشيخ المنافق ابن النجار جاء فيها: (اعلمْ أيها المقصر في التأهب لمعاده أني

كنت لا أعلم كراهيتك لنصرة الدين ونصيحة السلطان والمسلمين حملاً مني لك على ما هو شأن المسلمين من إحسان الظن بجميع الموجودين. وربما كنت أسمع في بعض الأحيان من يذكر بعض المسلمين فأنكر عليه بلساني وقلبي لأنها غيبة لا أعلم صحتها. ولم أزل على هذه الحال إلى هذه الأيام، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان- وفقه الله الكريم للخيرات- إن هذه البساتين يحل انتزاعها من أهلها عند بعض العلماء، وهذا من الافتراء الصريح والكذب القبيح.. فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين ما افتراه، ودلس على السلطان وأظهر أن انتزاعه جائز عند بعض العلماء، وغش السلطان في ذلك، وبلغ ذلك علماء البلد، وجبَ على هؤلاء العلماء نصيحة السلطان، وتبيين الأمر له على وجهه.

ثم إني لأتعجب غاية العجب من اتخاذك إياي خصماً فإنّي بحمد الله تعالى أحب في الله تعالى وأبغض في الله تعالى؛ فأحب من أطاعه، وأبغض من خالفه.. فيا ظالم نفسه! أنا ما خاصمتك أو كالمتك أو ذكرتك أو بيني وبينك مخاصمة فما بالك تكره فعل خير يسَّرني الله الكريم له؟..).

* * *

ثم يتوجه الإمام أبو زكريا إلى الملك بيبرس لينصحه – هذه

المرة- مشافهةً.. مهْما كلفه ذلك من ثمن!

على باب قصر الملك..

الإمام أبو زكريا النووي (الحاجب): ائذن لي بالدخول على السلطان.

يدخل الحاجب على الملك ويعود بإذن الدخول.

يدخل الإمام على الملك ويلقي السلام.

الملك بيبرس: ما وراءك يا شيخ؟ أمَا زلت تحرض الناس علينا؟

الإمام النووي: حَيَّا الله السلطان ونفعَ به الأمة. أيها السلطان المهيب! أيها القائد المظفر في الحروب! يا قاهر التتار والكفار! أتَودُّ أن تتوج انتصاراتك الباهرة وجهادك العظيم بهذه النقيصة الخسيسة التي تسمونها الحوطة على أراضي الأمة لتكون ملكاً للدولة؟ ما عهدنا سلطان المسلمين القائد العادل أن يتصف بالجور والظلم لا قدَّر الله، بل عهدناه قائداً بارزاً في الجهاد، وإماماً عادلاً في الحكم. أيرضى حضرة السلطان وهو الهادم للظلم

بطرده الغزاة الظالمين عن البلاد، أيرضى أن يهدم الظلم في جهة ويبنيه في جهة أخرى؟ إنّي أيها السلطان لا أطمع من وراء نصحي هذا إعادة منصب لي فقدته، أو لقاء عرض زائف من أعراض هذه الدنيا الفانية تمنحه لي، ولكني أنصح وأذكّر ابتغاء وجه الله تعالى ومرضاته.. فأنصحك بالعدول عن ضم تلك البساتين والأراضي إلى خزينة الدولة فتسخط الله عليك.. وأنصحك ألاّ تسمع لعلماء السوء والمنافقين الذين يزينون لك الظلم ويفتون بغير علم..).

تأخذ الملكَ رهبةٌ لهول الكلمات التي ألقاها على مسمعه الإمام، فيرقّ قليلاً، ويأمر الإمام بالجلوس..

في هذه الأثناء، ينتهز الإمام النووي هذه الفرصة فيواصل وعظه للملك حتى أقنعه أخيراً بالعدول عن ضم أراضي العامة للدولة.

* * *

الملك بيبرس يدعو الحاجب بأعلى صوته:

الملك بيبرس: أيها الحاجب! ادعُ لي كاتب الديوان.

الحاجب: أمر مولاي مطاع.

وبعد قليل يحْضر كاتب الديوان.

الملك بيبرس: يا كاتب الديوان! أَعلِنْ على الناس أن السلطان قد عَدل عن رأيه في ضمّ الأراضي إلى خزينة الدولة. وكلُّ من كان واضعاً يده على قطعة أرض أو بستان قبل غزو الأعداء لبلادنا فليعد إليها فهي ملكه.

كاتب الديوان (فرِحاً متنقلاً ببصره بين السلطان والإمام): سمعاً وطاعة يا مولاي.. نصرَ الله السلطان وأعزَّ ملكه.

يخرج كاتب الديون مهرولاً من القصر خشية أن يتراجع الملك عن قراره.. ويعلن للناس - بالوسائل المتَّبعة- النبأ المفْرح.

كما يخرج الإمام النووي بعد أن يستأذن السلطان ويشكره على تجاوبه مع علماء الأمة الذين ينصحون لوجه الله.

الناس يفرحون لإعادة أراضيهم إليهم، ويتناهى إليهم أن مَن كان وراء فرحتهم هذه هو الإمام أبو زكريا النووي، فما أن يخرج من باب قصر السلطان حتى تتناوله أيديهم فيحْملوه على أكتافهم وسط هتافاتهم: أعزَّ الله الملك، وحفظ الله شيخنا الإمام.!

* * *

الملك في شدة غضبه يأمر بعزل ابن النجار عن مناصبه التي ولاَّه عليها بدلاً من الإمام النووي.

الملك بيبرس: أيها الحاجب! ادعُ لي الشيخ ابن النجار، ونائب ولاية الشام، ونائب القضاء والفتيا، ونائب الخزينة.

الحاجب: سمعاً وطاعة يا مولاي!

يذهب الحاجب ليستدعي المطلوبين.

يحْضر المطلوبون.

ابن النجار (بتذلل وابتسامة رخيصة كعادته): السلام على ولي نعمتي مولاي السلطان ورحمة الله وبركاته.

الملك بيبرس (بغضب بادٍ على تضاريس وجهه): يا ابن النجار! قد جردناك من جميع مناصبك.. فلتخرج من مجلسي هذا.

ابن النجار (مذهولاً مرتبكاً): و.. و.. ولكنْ يا مولاي لم أرتكب ذنباً أستحق عليه هذه العقوبة.

الملك بيبرس: قد أمرناك بالخروج فاخرج.

يخرج ابن النجار مشحوناً بالغضب على الإمام النووي الذي كان السبب المباشر في إقصائه عن مناصبه، فبيِّت له في نفسه الشر..

ويخرج النواب الثلاثة مسرورين لقرار السلطان الجديد..

(ستار)

المشهد الثالث

ما انفك الشيخ ابن النجار يحيك الدسائس على الإمـام أبـي زكريا النووي، ويؤلّب أتباع الملك وبطانته عليه حتـى عـاد الملـك فقربه إليه من جديد..

طلب ابن النجار يوماً الإذن بالدخول على الملك فأذن له.

ابن النجار: مولاي الملك! تعلمـون يـا مـولاي أن مـصلحة الأمة والدفاع عـن الـبلاد يقتـضيان أمـوالاً طائلة ونفقـات كـبيرة.. وكمـا أعلـم فالمـال الذي في الخزينة لا يكفي لدفع نفقـات هـذا

العام من أعطيات للجند والموظفين وغيرها بسبب الجدب وقلة الأمطار.

الملك بيبرس: وماذا ترى يا ابن النجار؟

ابن النجار: الرأي رأي مولاي.. ولكّني أدلي هُنا برأيي المتواضع، ولا أحْمل عليه مولاي السلطان.

الملك بيبرس: إذا كان برأيك صواب قبلناه. فهات ما عندك.!

ابن النجار: أرى يا مولاي أن تفرض ضرائب جديدة على الناس حتى تظل الدولة في منعة وقوة للتصدي لغزوات المغول وغيرهم من الأعداء.. ونخشى أن يعيد المغول التتار الكَّرة فيحتلوا البلاد من جديد، ولا سيما وهم ما زالوا يتحينون الفرصة- فرصة ضَعفنا- للانقضاض علينا..

الملك بيبرس: ولكنَّ هذه الضرائب الجديدة قد تثقل كواهل العامة يا شيخ! وبخاصة والعام عام جدب... والناس في حالة فقر مدقع كما تَرى.

ابن النجار: ولكنْ لا تنسَ يا مولاي أن هذه الضرائب لن
تفرض على الفقراء بل على التجار
والأغنياء فقط.

الملك بيبرس: إذا كان الأمر كذلك، فَنِعْمَ الرأي يا شيخ!
أيها الحاجب!

الحاجب: لبَّيك يا مولاي!

الملك بيبرس: ادْعُ لي وزير الخزانة!

الحاجب: سمعاً وطاعة يا مولاي!

يحْضر وزير الخزانة بعد قليل، فيبادره الملك:

الملك بيبرس: أيها الوزير! قررنا فرض ضريبة جديدة على
الأغنياء والتجار.. كلٌ حسب تجارته ودرجة
غناه.. وذلك بسبب جدب البلاد لهذا العام
وضعف واردات الدولة.. فأعلنْ ذلك على
الناس.

وزير الخزينة: ولكنْ يا مولاي.. هذا القرار قد يؤدي إلى
تَذَمُّر الناس وغضبهم.. إذ بأي حق نفرض

عليهم ضرائب جديدة وهم يقومـون بـدفع زكاة أموالهم؟

الملك بيبرس: لقد قررنا ولن نتراجع.

يخرج الوزير من مجلس السلطان ليبدأ بصياغة القـرار الجديـد حسب الطُرق الرسمية، ليعْلنه على الشعب.

* * *

ما إن يتناهى إلى سمع الناس هذا القرار حتى يزداد استياؤهم وغضبهم على من كان وراء هذا القرار وهو الشيخ ابن النجار.

لم يسكت الإمام النووي- كعادته- على هـذا القـرار فـصمم على أن ينصح السلطان للتراجع عن قراره التعـسفي، ولكنـه آثـر هذه المرة أن تكون النصيحة بطريقة غير مباشرة.

لذا، فقد كتب برسالة إلى الأمير بدر الـدين الخازنـدار وزيـر الحربية والقائد العام للجيش، طالباً إليه أن يكون وسيط خير لدى السلطان لكي يعْدل عن قراره. وقد شارك الإمامَ النووي في كتابـة هذه الرسالة بعضُ العلماء ولكنْ في حذر وإشفاق..

تصل الرسـالة- عـن طريـق الأمـير بـدر الـدين- إلى الملـك فيغضب غضباً شديداً..

الملك بيبرس (موجهاً كلامه للأمير بدر الدين بعد أن قرأ الرسالة): أوَ قد اتخذ منك هذا الشيخ رسولاً أيها الأمير بدر الدين لتقوم بحمل رسالته إلينا؟

الأمير بدر الدين: يا مولاي السلطان! إنه – كما تعلم – شيخ جليل، وعالِمٌ تقي، لا ينْفك ينصح مولاي، وينصح الأمة، بما هو خير، وما جربنا عليه نفاقاً أو مداهنة أو كذباً.. ولا نجد فيه إلا عابداً زاهداً، ناصحاً مجاهداً..

الملك بيبرس (وقد انطفأت نيران غضبه قليلاً): ما عادت نصائحه علينا إلاَّ بالفقر (ملمحاً بذلك إلى ضرورة فرض الضرائب الجديدة).

يخرج الأمير بدر الدين من غير أن يُقْنع السلطان.

* * *

لكنَّ الإمام النووي يأبى إلاَّ أن يواصل النصح إلى السلطان.. ولذا كتبَ إليه مباشرة برسالة جديدة صريحة دون خوف أو وجل أو حسبان لنتيجة غير سارَّة..

ويشاء الله تعالى أن يتراجع السلطان عن قراره بعد أن قرأ

رسالة الإمام الأخيرة، وأن ينصاع لنصائح الإمام ويعود إلى جـادة الحق والعدل؛ فيأمر بالدعوة إلى اجتماع عـام علـى مـستوى عـال لرجال دولته ليتخذ قـرارات جديـدة.. هـي هـذه المـرة في صـالح الأمة.

الملك بيبرس: أيها الحاجـب! أُدْعُ لـي مجلـس ديـواني مـن أمراء ووزراء وقـادة جـيش وعلمـاء وعلـى رأسهم الشيخ أبو زكريا النووي.!

الحاجب: أمر مولاي مطاع.!

يخرج الحاجب ويبلّـغ المعنـيين- بـالطُرق الرسميـة- لحـضور الاجتماع الكبير في قصر السلطان. وبعد ساعات، يجتمـع المجلـس، ويبدأ السلطان حديثه قائلاً:

الملك بيبرس: مَرْحبـاً بأعـضاء مجلـس ديـواني مـن أمـراء ووزراء وقادة وعلماء .. أمّا وقد جاء الحـق وزهق الباطل، وكشفت لنا الأيام عن الكثير فإنّي أرغب في أن أطْلعكـم علـى مـا يـدور بذهني من أفكار ومسائل.

الجميع (بصوتٍ واحد): أجل يا مولانا.! فلتتفضل بإطلاعنا

إن شئتم.

الملك بيبرس: تعْلمون أنه بعد جلاء العدو عـن بلادنـا قـد حَدثت أمور ووقعت أحداث. وقد عَرضَتْ لنا مـسائل كنـا نَرجـع فيهـا إلى مستـشارينا وعلمائنا.. فمنهم مَن كان يؤيدنا، ومنهم من كان يخالفنا. وكنَّا نأخذ برأي هذا ونَدَعُ رأي ذاك، دون تريث أو تمحيص.

وقد ثبت لنا- فيما بَعْد- أن المؤيدين لنا في قراراتنا المتـسرعة إمَّا منافقين أو خائفين، وأن المخالفين لنـا كـانوا ناصـحين، أتقيـاء عاملين. لا يبتغون مـن وراء نـصحهم جـزاء الـسلطان ولا جـزاء الأمة، بـل ابتغـاء مرضـاة الله تعـالى، وابتغـاء الحـق.. لـذا، فـإنّي أشهدكم أن من كان منافقاً وغاشّاً في نصحه فسيلقى جزاءه عنـدنا قبْل أن يلقى جزاءه غداً عند رب العالمين. ومَن كان ناصحاً مخْلصاً فَلَسَوْفَ ننْصفه ونضعه في موقعه اللائق به.

أحد العلماء (خائفاً): إنْ تَفضلَ مولانا السلطان أن يبيِّن لنا هذه الأصناف من المستشارين والعلماء بذكْر بعضهم مثلاً بأسمائهم.

الجميع: بلى يا مولانا!

الملك بيبرس (وعلى وجهه أمارات التهديد والغضب):

لا.. ليس ذلك الآن.. لكنّي متيقن أن أكثركم يعرفونهم.! انصرفوا الآن.

ينصرف جميع من في المجلس بين هيَّاب وَجِل، أو مسرور جَذِل. وينصرف الشيخ ابن النجار ومَن على شاكلته من المنافقين خائفين مذعورين موقنين أنهم لن يفْلتوا هذه المرة من عقاب السلطان..

وينصرف الإمام أبو زكريا النووي رافعَ الرأس، عزيز النفْس، وبرفقته زملاؤه من العلماء والمستشارين المخْلصين.. فتتلقاهم في الخارج الجماهيرُ الحاشدة من المسلمين بالدعاء والثناء.

(ستار الختام)

المحتوى



كتب للمؤلف

الشعر

١- بشراك يا قدس: الديوان الأول

الطبعة الأولى – بيروت ١٩٨١م

الطبعة الثانية - عمان ١٩٩١م

الطبعة الثالثة - عمان ٢٠١٠م (الأعمال الكاملة م ١)

٢ - ثُم نسفوا البيت: مسرحية شعرية

الطبعة الأولى - عمان ١٩٩١م

الطبعة الثانية – عمان ٢٠٠١م

الطبعة الثالثة - عمان ٢٠١٠م (الأعمال الكاملة م ١)

٣ - الشعر والوطن: الديوان الثاني

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٠م (الأعمال الكاملة م ١)

٤ - دموع الوطن: الديوان الثالث

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٠م (الأعمال الكاملة م ١)

٥ - وتمضي المسيرة: الديوان الرابع

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٠م (الأعمال الكاملة م ١)

٦ - على دروب القريض : الديوان الخامس

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢م (الأعمال الكاملة م٢)

٧ - قصائد إلى بلدتي : الديوان السادس

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢م (الأعمال الكاملة م ٢)

٨ - سوانح الذكريات :الديوان السابع

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢م (الأعمال الكاملة ٢)

٩ - حب وشعر: الديوان الثامن

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢م (الأعمال الكاملة م٢)

١٠ - نبض القلم : الديوان التاسع

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢م (الأعمال الكاملة م ٢)

١١ - آلام ومسرات: الديوان العاشر

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢م (الأعمال الكاملة م ٢)

١٢ - قالت القوافي : الديوان الحادي عشر

الطبعة الأولى – عمان ٢٠١٢ م (الأعمال الكاملة م ٢)

١٣ – الشعر والشعب: الديوان الثاني عشر - مخطوط

١٤ - يا أيها الإنسان – الديوان الثالث عشر – مخطوط

١٥ - الشعر والمجتمع - الديوان الرابع عشر - مخطوط

النثر

١- قراءات في السيرة العطرة

الطبعة الأولى – عمان ١٩٨٤ م

الطبعة الثانية – عمان ١٩٩١ م

٢ - الرسالة الأولى – قصة اجتماعية – الطبعة الأولى - عمان ٢٠١٤م

٣ - من ماضينا البعيد – مسرحية تاريخية – الطبعة الأولى - عمان ٢٠١٤م

٤ - مختارات مما كتبته نثراً – الجزء الأول - مخطوط

٥ - **مختارات مما كتبته نثراً – الجزء الثاني - مخطوط**

٦ - **مختارات مما كتبته نثراً – الجزء الثالث - مخطوط**

٧ - **أعوام الشقاء – الجزء الأول (سيرة ذاتية) - مخطوط**

٨ - **أعوام الشقاء - الجزء الثاني (سيرة ذاتية) - مخطوط**



عنوان المؤلف

عمَّان – الأردن

هاتف: أرضي/ ٠٦ – ٥٣٣٩٠٥٨

خلوي/ ٠٧٧٧٢٨٣٧٠٥

E- mail- alqudahahmed@yahoo.com

المؤلف

- ولد أحمد حسن القضاة في بلدة عين جنَّة بمحافظة عجلون في الأردن في١٥ /١١ /١٩٣٨م.
- بكالوريوس في الأدب الإنجليزي.
- من شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.
- عمل موظفاً في الدوائر الحكومية في الأردن، كما عمل مترجماً في الشركات الأجنبية العاملة في الرياض بالسعودية.
- نُشر نتاجه الأدبي في الصحف والمجلات المحلية والعربية منذ خمسة وأربعين عاماً ونيّف.
- في طفولته، وقُبيل التحاقه بالمدرسة الحكومية النظامية تعلّم في كتّاب(*) القرية القراءة والخط والحساب وتلاوة وتشكيل وتجويد القرآن الكريم إلى جانب حفظ أجزاء من كتاب الله تعالى ممّا حبّب إليه اللغة العربية وكان له الأثر الأكبر في تمكنه من اللغة، ثم صُقل فيما بعد، في دراسته الأكاديمية وفي قراءاته

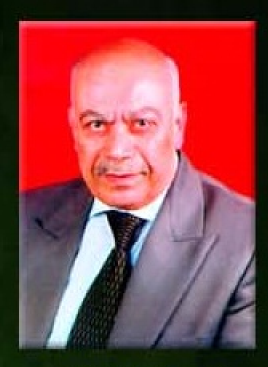
(*) الكُتّاب: يقابله اليوم الروضة وشتّان بين الاثنين.

المكثفة في كتب اللغة والدين والأدب.

- بحوزته من تأليفه أربعة عشر ديواناً شعرياً ومسرحية شعرية، وثمانية كُتب نثريّة، بين مخطوطة ومطبوعة.







احمد حسن القضاة